يستطيع ان يشارك الحكومة في قوتها ويغدو حكومة اخرى عاملا على الظلم والاجحاف بحقوق الضعفاء وكراماتهم ولكنه لما انتشرت العدالة وامتنعت رشوة القضاة واصبح الغنى غير مقدس كما كان قبلا صار الظفر بالمال ميسوراً من جهة وصارت قوته ضعيفة من جهة اخرى وهي التي اوجبت تيسير الحصول عليه لان كل ضعيف مبتذل فبدا على اثر ذلك الكرم مسوقاً بيد الطبيعة ولذلك تعد العدالة في هذا القطر بالخصوص وهي الاساس المتين الذي بنيت عليه الثروة وتولد منها الكرم. وانما نحن نذكر هذا القطر بالخصوص لان اهله كرام عن سجية وطبع وقد مدت العدالة في كرمهم واعانت على اظهار اموالهم دون خشية من ان يصادرهم بها احد ودون امل ان يستقووا بها لو ادخروها وحسبنا بالاسرائيليين برهاناً على ذلك فاننا نراهم في فرنسا وانكلترا واميركا وهنا وفي كل مكان عادل وهم اكرم جداً من امثالهم النازلين في بلاد الظلم والاضطهاد وذلك لانهم فيها يضطرون لحشد المال والشح به قصد ان يرشوا به الحكام والقضاة ليتخلصوا من ظلمهم واما هنا فلا يظلمهم احد ولا حاجة لهم ببذل درهم في سبيل رشوة واسترضاء ولذلك تراهم على كرم جمّ وسخاء كبير وعطف على الفقير وهذه مدارسهم ومستشفياتهم وملاجئهم شاهدة على ما نقول

وعلى الجملة فان الذين يخشون على نهضة العلم في هذه البلاد ان تضعف او تزول هم على غير صواب لانه ما دامت العدالة موجودة وهي سبب الثروة فهذا البذل من اجل العلم وسواه لابد ان يكون موجوداً معهما ونحن نرجو مع هذه الحال ان نرى هذا القطر بعد عشرين سنة بالاكثر وهو غير الان تماماً لان تلك الكتاتيب والمدارس التي صارت تعد بالمآت ستخرج

بعد ذاك الزمن نحو عشرة ملايين شاب عالمين بالقراءة والكتابة عارفين بالواجبات والحقوق وعند ذلك تصبح مصر وهي يابان جديدة بكثرة اهلها من جهة وكثرة علمها من جهة باذن الله

﴿ اضطهاد الاسرائيليين ﴾

كأنه قد كتب على هذا الشعب الاسرائيلي المسكين ان يكون مضطهداً اينما نزل مطروداً من جيرانه حيثما حل بل كأنه قد كتب له ارث الاضطهاد من قديم وجديد فهو يتحمل الان كل ما كان نازلا على غيره وارتحل دون سبب ظاهر يصح السكون عنده الا ان يكون التعصب الديني الذميم الذي برئت منه اكثر امم الارض في هذا العهد ولكنها لا تزال مصابة به من جهة الاسرائيلي وهو عيب فاحش يسجل شيئاً من الهمجية لاهل القرن التاسع عشر وهذا القرن العشرين وليس هذا القول بقولنا عن شكوى الاسرائيليين مما يصيبهم بل قول احد الكتاب الذي نشر عنهم فصلا بشأن ما يصيبهم من اذى الروسيين واضطهادهم فانه قال ان هذا الاضطهاد لا يصح ان يسمى سياسياً بوجه لانه من المحال ان لا يكون الاسرائيليون قد احسنوا السياسة في بلاد ولكنه من الحقيقي الواقع انهم مضطهدون تقريباً في كل مكان نزلوه واذا كان ذلك يجيئهم متقطعاً في مثل فرنسا وانكلترا واوستريا وسواها فانما هو واقع على كل حال وليس له من سبب الا التعصب الديني وبالتالي كره الاسرائيليين لانهم صلبوا المسيح مع ان ذلك قد تقادم

عهده من جهة وهو لاحق بالذين صلبوه وحدهم من جهة وعدا هذا فان المسيحيين انفسهم يقولون ان المسيح قد مات ليخلص العالم من الخطيئة وهذا لا ينطبق بشيء على ما يفعلونه من الخطايا بل لقد صار المسيح المسبب لها وحاشا له ان يكون كذلك

على ان وجوه العذر للتعصب الديني قد كانت جلية واضحة في القديم اذ كانت السياسة تمتزج بالدين احياناً فتسوق الى اضطهادهم وتعذيبهم كما ان ذاك الاضطهاد كان واقعاً على سواهم ايضاً من الشعوب الضعيفة واما في هذا العهد فيقول الكاتب انه لا شبهة في ان هذا التعصب حادث من جهة الدين وحده مع ان التعصب على البروتستانت قد زال من كل مكان وآن لهذا التعصب الآخر ان يزول كما ان هذا التعصب اذا كان لا يزال واقعاً على بعض البدع فانما ذلك لكونها لا تزال جديدة فهي متى قدمت كالبروتستانت زالت دون ريب ولكن التعصب ضد الاسرائيليين ليس بزائل على ما يظهر

على انه قد كان يعتذر لهذا التعصب بانه صادر عن القوم الجاهلين الذين لا يعرفون ان الدين يجب ان يكون صنو الرحمة والاشفاق ورفع الاذى ولكن ذاك الكاتب يقول انه صادر عن العقلاء ايضاً كما بدا من فرنسا في قضية دريفوس فانها اقامت الدنيا واقعدتها من اجله ثم كانت عدالتها فوق تعصبها فحكمت له لا عليه ولكنه لا يزال يوجد في فرنسا الوف يكرهون الاسرائيليين مع انهم مثلهم لغة وجنساً وليس ذلك الا لانهم صلبوا المسيح

ولقد ينكر البعض توجيه هذه التهمة الى اولي الفضل والرشاد لانه لا يعقل ان يؤدي بهم ادراكهم الى هذا الاعتقاد في مثل هذا الزمن

ولكن الكاتب يقول انه لما كان الاسرائيليون يبحثون في تخفيف الاضطهاد عنهم في روسيا رأوا ان يبعثوا الى المرحوم الامبراطور اسكندر الثالث بعريضة استرحام ترد الضرر عنهم وتنيلهم بعض الحقوق فنظر في عريضتهم واستحسنها ورأى مطالبهم فيها عادلة ولكنه نظر الى من حوله وقال « ولكنهم صلبوا المسيح » فاذا كان هذا هو قول ذاك الامبراطور الشفيق الرحيم فقد انتفى اذن كل تعصب سياسي او مالي ضدهم وثبت على مضطهديهم وصمة التعصب الديني لا غير . وانه مما يذكرنا بهذه الحالة ما يرويه العوام في احاديثهم المأثورة وهو ان مسيحياً لقي اسرائيلياً فاخذ يضربه والرجل يستغيث حتى جاء الناس فسألوه عن سبب ضربه فقال لان قومه صلبوا المسيح فقالوا له ولكنهم صلبوه من مآت سنين فاجابهم على الفور انني والله ما عرفت ذلك الا بالامس فقط ....

ثم انه ليس القيصر الروسي رحمه الله الذي قال ذاك القول او هو وحده من رجال هذا الاعتقاد بين اولي النظر المديد والادراك الواسع بل لقد روي عن البابا بيوس التاسع عشر رحمه الله انه كان ضدهم وكان يدمجهم بين اعداء الدين الكاثوليكي من الفرنسويين وسواهم وبين الماسونيين حتى لقد كتب بمقاومتهم جميعاً الى احد الاساقفة في فرنسا . ثم فعل مثل هذا الفعل احد اساقفة ايرلندا فخطب ضدهم بما كان له اشد وقع عليهم حتى اضطرت انكلترا ان تتدخل في الامر وترد عنهم هذا العدوان ولم يكن ذلك الا من سنتين فقط . وان في كل هذا ما يدل على وجود التعصب الديني ضد الاسرائيليين دون شبهة ولذلك فان الكاتب يستنجد الانسانية ويستنصر ابناءها من جميع الملل والاجناس الى عقد مؤتمر يخفف بلايا الاسرائيليين

كأن يخطب في الكنائس بوجوب منع الاضطهاد عنهم ومعاملتهم بالحسنى لانه من العار ان يكون هذا الاضطهاد موجوداً في القرنين التاسع عشر والعشرين ومن العار الاشد ان يبقى الى ما لا نهاية له بين سمع اولي الرحمة ونظرهم بل انه من العجيب ان لا تصيب الاسرائيليين نكبة حتى يكون المسيحيون اول من هب الى مساعدتهم بالمال ثم يتركون التعصب الذي جر عليهم تلك النكبة باقياً دون ان يكون منعه مدماً باعتبار انه السبب

هذا محصل ما يقوله ذلك الكاتب بتصرف وهو لا يخلو من صحة على ما يظهر من توالي الاضطهاد عليهم ولفظ كل بلاد مسيحية لهم مع ان هذه البلاد الاسلامية تقبلهم على الرحب والسعة ومثلها البلاد العثمانية حيث لا يضطهد فيها اسرائيلي الا ان يكون الاضطهاد من افراد وان في هذا ما يزيد في الدلالة على ان المسيحيين يكرهونهم دينياً او لانهم صلبوا المسيح كما هي الدعوى الشائعة بين الاسرائيليين

واننا اذا نظرنا الى اضطهاد امة لامة ودين لدين فقد نجد العذر واضحاً للمتعصبين ولو كانوا من اكابر الناس واولي التميز منهم وانما يجيئهم ذلك العذر من العصر الذي كانوا فيه والاكثرية التي حلوا بينها فان الذي يقرأ مثلا شعر البحتري يتبين له منه ان الرجل كان صحيح المدارك مديد النظر محيطاً بجوانب الامور او هو على الاقل من رجال الطبقة السامية الممتازين عن العوام كل الامتياز حتى لا شغل يشغل صدورهم سوى نظم الشعر وتحصيل الحقائق ونحو ذلك ولكنه حين ينظر اليه وهو يشكو زمانه ويصف خصاصته ويقول

فلو كان الغنى حظاً كريماً لاخطأه النصارى واليهود

فانه يراه على اشد حالات التعصب واقبحها لانه لم يجد اليهود والنصارى اهلا لنعمة الله واحسانه بل هم احق بالفقر واولى بالمسكنة والذل وانه قد يكون على شيء من الصواب من حيث ان عامة النصارى واليهود لم يكونوا على شيء يذكر من العلم او محاسن الاخلاق بسبب ما كان يتوالى عليهم من الاضطهاد الذي يسبب الذل الذي يسبب الخبث . الا ان البحتري يعد معذوراً على كل حال لانه جارى عصره والمحيطين به من المضطهدين دون ان يجاري شيئاً من عواطفه واميالة نحوهم ولا سيما مع ما كان عليه اهل الفضل في تلك الايام من الصداقة والمودة كصداقة الشريف الرضي والصابي وسواهما وانه مما يؤكد هذا قوله في مكان آخر يعاتب احد اصدقائه

فما ذنبي بان كان ابن عمي سواك وكان عودك غير عودي

وقوله

ولا تقل امم شتى ولا فرق فالارض من تربة والناس من رجل

ثم ان ابا العلاء المعري وهو هو من جهة نظره الى مختلف الاديان يقول

اعباد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيحا

يريد بذلك شيئاً من هجو النصارى والتهكم عليهم

وقد كان المتنبي وهو هو ايضاً من تلك الجهة على شيء من الجري مع تيار التعصب دون ارادة ذاتية لانه تعرض الى النصارى مراراً في شعره فعينهم وسماهم وذكر صلبانهم وان السفائن بنيت منها ونحو ذلك . وان في كل هذا على ما فيه مما لا يشير الى ان اولئك الفحول كانوا على تعصب

ديني قلبي وانما هم كانوا متعصبين في الظاهر مجاراة لذلك التيار الذي كان متدفقاً في عصرهم اي تدفق قصد نفع الاسلام باذلال الروم وطردهم عن التخوم كما ان ذلك التيار كان مالئاً كل مكان في الدنيا بحيث لا يعد عجيباً اذا جاراه العقلاء من طريق التقليد او دعوة المصلحة السياسية واما ان المرحوم الاسكندر الثالث يقول « ولكنهم صلبوا المسيح » ويقوم المرحوم البابا بيوس فيغري رجاله بهم ويقوم اسقف ايرلندا فيدعو سامعيه الى ظلمهم واذلالهم فما لا يصح ان يعدوا فيه بمنزلة الوليد وابي العلاء والمتنبي لان اولئك كانوا حيثما التفتوا يرون التعصب جارفاً اياهم معه فينقادون اليه واما هؤلاء في هذا الزمن فليس التيار بشديد عليهم الى هذا الحد ولا الى معشاره وليس القول بصلب المسيح من الاقوال التي تدعو الى حقد الاكابر واولي الفضل وعلى هذا فاما ان يكون الكاتب مختلقاً هذه الدعاوى وهذا غير مرجح لان الكذب لا يبلغ هذا الحد ولاسيما وهو يعين الاسماء والامكنة واما ان يكون الذين ذكرهم متعصبين حقيقة تعصباً دينياً وهذا غريب منهم ومن امثالهم ولكنه قد لا يعد غريباً اذا اعتبر ان للانسان بعض الجوانب الضعيفة التي تجعله في حد الصبي على حين يكون فيلسوفاً كبيراً في تلك الجوانب

الا ان دعوة الكاتب اولي الرحمة ورجال الدين المسيحي الى تقرير حالة تضمن لسلامة الاسرائيلين في الحاضر والمستقبل تعد من الدعوات الواجبة الاتباع جداً في هذا العصر المنير لانه كيفما كانت حالة الاسرائيليين وعداؤهم المالي والسياسي والديني لسائر الشعوب فانه من العار على هذا القرن ان يقتل فيه من طائفة من بني الانسان مئة الف نفس من بضعة

اشهر وهم الذين قتلوا في روسيا بهذه السنة من اجل انهم اسرائيليون ليس الا

﴿ مضار العلم ﴾

ما برحت هذه المدنية وهي كلما نفعت الناس بشيء اضرتهم بشيء واذا اراحتهم من ناحية اتعبتهم من ناحية حتى لقد احتار الناس في الظن باي الحالتين احسن الحضارة ام البداوة

انه لا ينكر ان الحضارة قد جاءت الى الناس بمنافع ربما ما جاء بها قرن منذ نشأوا حتى الان فهي التي اراحتهم من مظالم الملوك والحكام وسلطة رجال الدين وساوتهم في الحقوق وجعلتهم متضاهين على الحياة الطيبة حتى كانهم اسرة واحدة بل لقد جلت عن ذلك حتى صيرت الغنى مبتذلا بكثرة ما اوجدت من اسبابه ووسعت من دائرة الامل بالحصول عليه كما انها جعلت هذا الغني محدود القوة بعد ان كان له كل الحول والطول وهي ولا شك منافع تزيد جداً عن منافع البداوة وما فيها من البساطة الجميلة التي يقلدها المتحضرون الان تقليداً ويهربون اليها من الحضارة حرباً كلما امكنتهم الفرص بل ان البعض قد ضايقتهم الحضارة جداً حين نظرهم الى كل الناس حتى افرطوا بالتفلسف بان البداوة كانت انفع او ان بعض الجهل قد صار خيراً من كل العلم وقد يكونون على جانب من الصواب حين النظر الى ما جاء به العلم من المضار